المسرح في غزة.. طاقات شابة يبددها الحصار

شيرين العكة

يتداعى متدربون غزيّون مهتمون بفن المسرح إلى قاعة التدريب، متعطشون للتعلم ومثقلون بعزلتهم في آن واحد، حيث جرت العادة أن يجدوا مدربهم في استقبالهم، لكن هذه المرة يطلُّ عليهم عبر شاشة فيديوكونفرنس.

يتهامسون وهم يرمقون الشاشة «انه نزار زعبي!»، يرونه للمرة الأولى، والمرة الأولى هنا كالأخيرة؛ فهو يلتقيهم من خلال وسيط تكنولوجي، لأن هويته الإسرائيلية تحول دون عبوره إلى قطاع غزة.

يجلس المتدربون في حلقة مفتوحة، يَنشدّون لمحدثهم عبر الشاشة حتى يستطيعوا الوصول إلى مرحلة كسر الجمود التي بدأها زعبي مبتسماً، مقدماً نفسه على أنه مخرج مسرحي، إلا أنه يمتلك الكثير من الخبرة في مجال التمثيل والكتابة وغيرهما، فهذا الفلسطيني الثلاثيني استطاع العمل في أهم المسارح العالمية.

هناك في الزاوية يهمس أحدهم لزميله «منذ زمن وأنا متعطش للقائه، إنه موسوعة في المسرح»، هالة من الحماسة تغشى الجميع، إنه الشغف، والترقب للاستماع إلى زعبي وحيازة ما تُمكنهم الظروف من اكتسابه، فها هو زعبي أمامهم لا مجال لإهدار الفرصة.

لم يخب أملهم فيه، فقد فاجأهم بسعة صدره ووضع بين أيديهم جزءاً كبيراً من خبرته، بالأمس كانوا يخشون خشبة المسرح، والآن يترقبون بشغف أن يُفتح الستار، لينصتوا إلى محدّثهم وهو يبحر في أبو الفنون «المسرح»، يحكي عن خطورته وتأثيره كأنه مصير، عن خلوده رغم كونه فناً آنياً يتأثر بمرور الوقت.

يضعف الصوت فيصيخ الجميع السمع ترقباً لعودته، يمر الوقت فتتدفق الكلمات مجدداً لتحكي عن الفعل الذي نفني حياتنا لأجله، يطلب من المتدربين أن يقفوا أمامه ليختبر توازنهم ومدى إحساسهم بالأرض من تحتهم. يكرر طلبه، يفعلون وعلامات الاستفهام تبدو على وجوههم، إلى أن تومض في رؤوسهم الإجابة «كيف يقف الممثل المسرحي على الخشبة أمام جمهوره؟».

يتقارب المتدربون في الأعمار غير أن اختلافاً طفيفاً طرأ على تجاربهم، فبعضهم سبق وأن حصل على فرصة إما تدريبية وإما تمثيلاً في إحدى المسرحيات التي أُنتجت على نطاق محلي.

تمتد الدروس وتسلك منحى متطوراً، فقد عَرّف زعبي المسرح كما لم تُعرفه الكتب والنظريات القديمة من قبل، وصولاً إلى حضور الممثل على الخشبة، والمقومات التي يجب أن تكون بحوزته، فالممثل إنسان سيلتقي بإنسان آخر، يشاهده ويُصغي إليه، يشاهده بلا وسيط، بلا شاشة، بلا مونتاج.

لا شك أن تنفيذ تدريب دراما عن بعد يتخلله من الصعوبات ما يكفي لجعل القارئ يقع في شرك الحيرة عند سؤاله عن مدى استفادة المتلقي، فالدراما فن إنساني جسماني، وهؤلاء المتدربون الذين يزيد عددهم على عشرين شخصاً، أجسادهم بحاجة للالتقاء بجسد مدربهم، بحاجة لأن يُعدل كاحل أحدهم عند أدائه لتمرين معين، بحاجة لأن يشعر بهم ويلمس رغباتهم أكثر من مجرد تحديقهم في وجهه.

غصّة في حلق الأمل

«ولدت في المسرح؛ فوالدي مخرج وممثل مسرحي، كان يصحبني معه في أغلب الأوقات، وكنت بمثابة متفرج لما يدور حولي من همس وقول وحركات، حتى تكونت رغبتي في خوض هذا الغمار»، هكذا يعلّق دائماً ثائر أبو ياسين (26 عاماً) حين سؤاله عن سبب انتسابه للتدريب واهتمامه في المجال.

وسبق له أن قام بتأدية أدوار عدة بسيطة في مسرحيات محلية، كما تلقى عدداً لا بأس به من الدورات التدريبية في المجال نفسه، لكنه يعتبر أن تجربته هذه المرة مختلفة «هذا التدريب هو الأفضل بالنسبة لي، لقد تعلمت كيف أكتب نصاً مسرحياً، كيف أتحرك وأحدد إيقاع الشخصية وتفاصيلها». وكان أبو ياسين قد حدّث زعبي عن دور ما كُلِّف به في مسرحية ستعرض قريباً، وبفضل التدريب استطاع رسم ملامح هذه الشخصية واللازمة الخاصة بالممثل.

جانب من مشاركة مهتمين ومهتمات في مجال المسرح، غزة 2016.

لكن غصّة تملكته منذ بداية التدريب، ومبعث هذا الشعور كما أوضح، الشّك؛ الشك في أن طريقة التواصل من خلال التكنولوجيا ستمكنه من الاستفادة والتعلم، أيضاً ظروف الكهرباء التي كانت تباغت كامل انسجامهم والتحامهم بالشاشة، فينقطع الاتصال مرتين على الأقل في كل لقاء.

بسبب هذه الظروف، أبدى حرصه على عدم تفويت يوم تدريبي واحد، والانتباه الكامل لكل ما يتلقاه، كما ظهر التزامه بأداء الواجبات والمهام التي كُلِّف بها وزملاءه في بعض المرّات، عدا عن مشاركاته التي اجتهد الرأي فيها، فزعبي كان جاهزاً دوماً للاستماع من الجميع مهما كلفه الوقت، يستمع منهم ويبني على اجتهاداتهم ويقوّمها أيضاً.

الحماس الذي تملّك صوت أبو ياسين حين تحدث عن مدى استفادته من التدريب، تلاشى بمجرد انتقاله للحديث عن الفرص المتاحة للممثل في غزة، يقول «صعب أن يصل الفنان المبتدئ في غزة إلى ما يريد، حيث لا بيئة ولا مقومات لوجود مسرح أو سينما، عدا عن ضياع فرص السفر للبحث عن ظروف أفضل»، فهذا الشاب المولع بدورٍ في مسرحية خارج النطاق المحلي، كان قد حصل بالفعل على مراده، لكن المعابر المغلقة حالت دون وصوله.

بلال أبو سعده (23 عاماً) دائماً ما كان يجاور ثائر في المقعد، صحيح أنه لم يكن بفعالية الأخير ومشاركته، فهو هادئ الطبع يستمع أكثر مما يتحدث، لكن اختلافاً واضحاً طرأ على شخصيته وأدائه خلال فترة التدريب.

بلال درس التمريض، لكنّه لا يجد نفسه في هذا التخصص، بينما يجدها في خياله حين يبتدع شخصيات ليس لها وجود، ويتصرف كأنها أمامه، يقوم بتقليد بعض أقرانه في العائلة، وحتى بعض الممثلين ممن يتأثر بهم.

يقول «بناءً على اهتماماتي أحببت الانخراط في حلقات تنشيط الأطفال واللعب معهم، أيضاً ترددت على بعض الجهات التي تُعنى بالمسرح في غزة، طلباً للاستفادة»، لكن بحسب بلال، فإن ما تعلمه لم يكن كافياً، فبعض الأمور بقيت بحاجة لتوضيح، ظلَّ يسأل عن المسرح وماهيّة الأفعال، ويعتبر أن التقاءه بالمخرج زعبي حَمل إليه الإجابة.

عن تأثير التدريب على شخصيته؛ بيَّن أنه أصبح اجتماعياً أكثر من ذي قبل، يؤدي ردود أفعال مختلفة محارباً خجله الذي كان في السابق، وأصبح لديه فعل جديد ألا وهو «التفكير»، وأضاف بلهجة الواثق «أمتلك الآن معلومات نظرية قيّمة، لكنني بحاجة لما هو عملي، لو أنه بالإمكان الذهاب إلى المدرب نزار أو يأتي هو إلينا، لا نريد للإنترنت أن يكون وسيطاً بيننا!».

خطوة للأمام وأخرى للخلف

محمود أبو سلطان (23 عاماً)، يحلم بالسفر والمشاركة في أحد برامج المواهب العربية، فإضافة إلى اهتمامه بالمسرح، يرسم ويكتب الشعر ويلعب الشطرنج ويتخيل، عن الأخيرة قال «عند أدائي دوراً تمثيلياً بسيطاً أبقى متأثراً به حتى بعد انتهائه وأمارسه في حياتي، كما أبتدع شخصيات أخرى وأحادثها، وأكاد أتواصل معها أكثر من تواصلي مع أهلي وأصدقائي».

ولأن أبو سلطان مأخوذٌ باهتماماته وهواياته السابقة، قرر ألا يُنفق المزيد من الوقت في التعليم الأكاديمي، تمنّى أن يدرس تخصص له علاقة بالمسرح أو التمثيل، لكن هذا المجال غير متوفر في قطاع غزة، لذا فهو ليس مضطراً لدراسة ما يخالف اهتماماته لمجرد الحصول على الشهادة، على حد تعبيره.

ويجني أبو سلطان المال من عمله في بناء المنازل على الرغم من أن هذه المهنة تبدو شاقة عليه، فقامته الطويلة وعوده النحيل جداً ووجهه المنحوت، عدا عن عينيه اللتين تكاد تخرجان من محجريهما لشدة تركيزه في الأشياء من حوله؛ جميع هذه المواصفات تولّد لديك انطباعاً بأنك أمام كتلة من المشاعر والأفكار، وليس قوة عضلية، فقد كان دائماً أول المبادرين حين يطلب زعبي تنفيذ تمرين معين.

وكحال أي شاب في هذه المدينة المغلقة، ما أن يتحدث عن طموحة لا بد وأن تجد أول المصاعب التي تعترضه إغلاق المعبر، وما يترتب عليه من صعوبة التنقل وضياع الفرص على الرغم من ندرتها، يقول «كلما شعرت أنني أقترب من حلمي، شعرت، أيضاً، أنني أبتعد عنه، ليس لدي سوى المحاولة للظفر بفرصة تعلم أو تأهل في التمثيل، إلى ذلك الوقت سأبقى أبتدع شخصيات من وحي خيالي، حتى أعثر على شخصيتي الحقيقية».

شركاء في الوجع

ويشارك المخرج المسرحي نزار زعبي شعور متدربيه الغصة، فالألم مشترك، والحواجز التي وقع الطرفان ضحيتها، تُظهر بجلاء العجز الإنساني، الذي يحول دون الالتقاء في وضع طبيعي، فزعبي ليس مقيماً في أوروبا مثلاً، والوقت الذي يحتاجه للوصول إلى غزة، سويعات قليلة فحسب.

التضامن في الوجع كان سمة الجميع، فعبارات كـ «متى نلقاك نزار؟»، و«خدنا عندك نشوف يافا ورام الله!»، فيرد زعبي بعبارات التمنّي، كانت تترد كلما تجدد اللقاء.

«الشاشة متعبة» يقول زعبي موضحاً الظروف التي عمل بها، «كنت أبذل مجهوداً مضاعفاً عن ذاك الذي أبذله مع ممثلين محترفين، طوال الوقت عملتُ على جذب انتباههم واستماعهم لي، مراعاةً لصعوبة تنفيذ التمارين عن بعد مع أشخاص مبتدئين في المجال»، وبشيء من خيبة الأمل تابع حديثه «الكثير من التفاصيل لم أتمكن من التقاطها، بعض الأصوات كانت تذوب حين يتحدث أكثر من شخص، مؤسف أنني لم أستطع التقاط كل قصة حدّثوني عنها».

لكن زعبي الذي يتميز بالحيوية وخفة الظل، كان لا يترك حيزاً من الشاشة إلا ويشغله بوجهه، مقترباً من متدربيه قدر الإمكان، يحدثهم بلا تكلف أو حدود مبتعداً عن المجاملات، مثل هذه الشخصية يمكنها أن تجد مخرجاً لهذا المأزق حتى لا يُصاب المُتلقون بالإحباط، فحتى آخر يوم ظلَّ يحثهم على الحرص والالتزام تجاه مسؤولياتهم والجدية في أدائها.

يذكرهم دائماً «إمكانيات المسرح خطيرة، وحياتنا كفلسطينيين نعيش داخل دائرة صراع سياسي، تجعل من هذا الصراع مادة

المشاركون في ورشة المسرح خلال استماعهم لملخص عن المشروع، غزة 2016.

خام لقصة درامية فيها ما فيها من الألم والحب والجمال .. لا تتوقفوا عن الكتابة وتسجيل القصص»، ويكرر وصيّته التي غالباً ما يختتم بها حديثه «ربّوا الفضول داخلكم!».

استراتيجية جديدة لفتح الأبواب المغلقة

محمود أبو هشهش مدير برنامج الثقافة والفنون في مؤسسة عبد المحسن القطان قال «لا يمكننا الانتظار حتى يسمح لنا الوقت بلقاء بعضنا البعض مباشرة، لا يمكننا ترك غزة تعاني العزلة، بدلاً من ذلك سنحاول التعامل مع الواقع والاستفادة من تجاربنا السابقة»، مشيراً إلى التجارب الناجحة التي سجّلها مركز القطان في التدريب والتعليم عن بعد.

عن الاستراتيجية التي تبناها التدريب، أوضح أنهم أرادوا البحث عن طاقات شابة ليس لديها تجربة لكنها مهتمة بالمسرح، كما عملوا على تعريض المشاركين إلى أفكار جديدة وتسهيل لقائهم بشخصية شابة ناجحة تفتح أماهم الأبواب، في إشارة إلى المخرج زعبي.

وبيَّن أبو هشهش أنهم يتطلعون إلى استكمال التدريب مع الأشخاص الذين أظهروا اهتماماً وتفاعلاً في المجال، فمن المتوقع أن المتدربين تمكنوا خلال المرحلة الأولى من اختبار توجهاتهم واكتشاف حقيقة شغفهم بالمسرح، واتخاذ القرار بشأن الاستمرار في التدريب.

ويرمي برنامج الثقافة والفنون إلى التركيز على الجانب العملي، والتطلع إلى إنتاج عمل مسرحي يكون أحد مخرجات التدريب، إضافة إلى تمكين المتدربين من الالتقاء بفنانين وممثلين للاطلاع على تجاربهم، هذه المقترحات وغيرها الكثير ما زالت تُنسج ويُجرى التشاور بشأنها، مبيناً أبو هشهش الهدف منها «نريد تغيير المفهوم الكلاسيكي للمسرح، والارتقاء بالفنان الصاعد لتطوير مهاراته حتى يواكب مستوى الفنون المعاصرة».

من المهم الإشارة إلى أن ضيوفاً حلّوا على التدريب لإثراء الحوار وتعزيز مواضيع النقاش، منهم الممثل المسرحي عامر حليحل، والموسيقي فرج سليمان، وهو أيضاً عازف بيانو، دار النقاش معهما عن صفات الممثل وأسلوبه، والعناصر اللازمة لإحداث تغيير على الخشبة بما فيها الصوتيات والموسيقى.

جمعية بسمة للثقافة والفنون هي شريك في تنظيم «تدريب طاقات جديدة شابة في مجال العمل المسرحي»، يحيى إدريس مدير المشاريع في بسمة، قال «من خلال عملنا، نلمس حاجة الشباب ممن يمتلكون مواهب وطاقات فنية، للمشاركة في برامج تدريبية تنمي مهاراتهم، من بينها المسرح، لذا بحثنا عن شريك يساعدنا في إتمام هذا العمل».

عن سبب اختيارهم العمل مع «القطان»، قال إدريس: «القطان» مؤسسة رائدة في مجال الثقافة والفنون وتتمتع بالقبول في أوساط المواطنين في غزة، وهي بالتأكيد خير داعم ومنتج للمشاريع الهادفة، تحديداً المسرح.

وكما اتفق الجميع على شخصية المخرج زعبي، أكد إدريس على ثقتهم به كمدرب يتمتع بخبرة عالمية في مجالي الإخراج والكتابة المسرحية، ويختلف عن المخرجين في غزة باختلاف تجربته وتمكنه من العمل في ظروف أفضل وأفق أوسع، علاوةً على تمتعه بشخصية تمتلك صفة الإقناع لدى المتدربين، وقد ظهر ذلك جلياً خلال التدريب، فقد أحبّه الجميع.

لا شك أن استكمال التدريب والبناء عليه، سيجدد الأمل لدى هؤلاء الشباب الحالمين، بأنهم على موعد قريب يتخذون فيه مقاعدهم بانتظار أن يُفتح الستار عن صورة زعبي عبر الشاشة، أو ماثلاً أمامهم بجسده وتجربته معاً.

صحافية تقيم في غزة

جانب من مشاركة مهتمين ومهتمات في مجال المسرح، غزة 2016.